بيئة أبي تمام

لا أقصد بوصف بيئة أبي تمام دراسة أحوال الامبراطورية العربية في القرن الثالث الهجري (والقرن التاسع الميلادي). ان تلك الأحوال كانت تمثّل مدنيّة العالم بأسره والتاريخ بعصوره. ولو أني تعرّضت لبيئة أبي تمّام بمثل هذا التفصيل[1] لاضطررت إلى أن أجتزىء بأشياءَ عامّةٍ لا جدْوى تحتها لمن يتناول هذا الكتاب — وقد لا يكون لها صلة وثيقة أو غير وثيقة بأبي تمام وشعره. على أنني سآخذ في هذا الفصل تلك العناصر والعوامل التي كان لها أثر بيّن في حياة أبي تمام وصلة ظاهرة بشعره.

١ — بيئته الخاصة

احتكاكه الأول بالشعراء

لما ظهرت مواهب أبي تمام — وكان قد رحل من دمشق إلى حمص — كان أكثر اختلاطه بآل أبي عبدالكريم الطائي، وبعبد السلام بن رَغْبان المعروف بديك الجن، كما مر بنا. ثم إن شبان حمص وشعراءها لم يبلغوا من الخلاعة والفتك ما بلغ إليه أبو نواس وعصابته ببغداد وضواحيها: لقد كان الرأي السائد في حمص مناهضة أمثال هؤلاء المتهتكين الذين كانوا يفسقون في ستر. وكثيراً ما

---

(١) لما أصدرت الطبعة الاولى من دراسة ابي نواس (بيروت ١٣٥١ — ١٩٣٢) أخذ علي محمد محمود شاكر في مجلة المقتطف (مصر، فبراير — شباط ١٩٣٣، ص ٢٤٠ س) أنني أوجزت جداً في الكلام على بيئة أبي نواس.

كان هؤلاء الخلعاء لا يَنْجون من قبضة رجال الشُّرْطة إلا بعد لأي[1] .

وكان مُجّان حمص يرتادون الميماس[2] ليشربوا الخمر أو ليفسقوا، ولكنّ ذلك كان حياة خاصة لهم لم يجهروا بها ، ولم يتهتكوا تهتك بشار وأبي نواس ومُطيع بن إياس[3] في بغداد . وكذلك كان زعيم شعراء الشام وأستاذ أبي تمام، ديك الجن الحمصي ، كثير التأثم من الجهر بما كان يَغْلِبُ على طبعه أحياناً من حب القصف ، ثم هو فوق ذلك عَلَوي شديد التقوى . وهكذا لم يقع أبو تمام في بيئة مستهترة كما اتفق لأبي نواس .

وهنالك أيضاً ملاحظة تصدق على كل زمن ، هي أن الداخل حديثاً في دين يكون أشد تمسكاً بفروضه وشعائره من أصحاب الدين أنفسهم . وأبو تمام رغب في الإسلام — تاركاً بلادَه وأهله — فكان حَرِيّاً باجتناب كل ما يُحمَل منه على غير الإخلاص .

مصر بعيدة عن فساد بغداد

وانتقل أبو تمام إلى مسجد مصر يسقي الماء فيه لمعاشه ، فكان يلازم المسجد منذ الفجر إلى ما بعد العشاء في الأغلب — مدة قد تبلغ أحياناً ست عشرة ساعة أو أقل قليلا — . من أجل ذلك كانت فرص اختلاطه بالعالم الخارجي نادرة فلم تُتَحْ له فُرَصٌ يقتدي فيها بغير رجال الدين وأعلام الأدب . كان أبو تمام يلازم هذا المسجد واقفاً أمامَ حَلْقةِ تدريس ، فاذا طلب أحدهم شَرْبة ماء سقاه ثم رجع إلى مكانه الأول يختلس الرأيَ بعد الرأيِ والرواية بعد الرواية .

ولا ريب في أن مصر كانت في ذلك غير بغداد : كانت بعيدة عن فجور

---

(١) راجع شيئاً من اخبار ديك الجن في الاغاني ١٢ : ١٣٦ (طبعة دار الكتب ١٤ : ٥١—٦٨) .

(٢) الميماس متنزه في حمص كثير الاشجار يتدفق فيه نهر العاصي فيكسبه جمالا ؛ وكان الميماس متنزهاً لحمص ولا يزال ، ولكنه اليوم لمن يقصده . وقد بنى اليوم فيه بناء حديث يجذب نفراً من المتنزهين ولكن ضيع شيئاً من الجمال الطبيعي لذلك المتنزه .

(٣) راجع راجع مثلا اخبار ابي نواس لابن منظور .

الروم والفرس والمجوس وعن حاناتهم السرية ؛ أو هي لم تكن في ذلك كما كانت بغداد ، ولم يكن فيها من يطلب الدُّعابة حتى في المسجد ، أمثال عصابة أبي نواس الذين كانوا يُنهون الدرس بحملة مُجونية على الأستاذ .

ممن استقى أبو تمام علمه ؟

كان أبو تمام رجلاً حُبّب إليه الأدب عامة والشعر خاصّة ، فكان يستفيد مما يمر به من ذلك . فهو في هذا الباب عِصامي وفّر أوقاته على الاستفادة ثم لم يترك له اجتهاده متّسعاً للّهو .

لا نستطيع ، مما لدينا من أخبار أبي تمام ، أن نعرف شيوخ أبي تمام ؛ ولكن الصولي[1] ذكر جماعة روى أبو تمام عنهم ، منهم العطّاف بن هرون ، وكَرامَة بن أبان ، وأبو عبدالرحمن يحيى بن اسماعيل الأموي ، وسلامة بن جابر النّهدي ، ومحمد بن خالد الشيباني ، وقِلابة الجَرْميّ ، ومالك بن دَلْهَم وعمرو بن هاشم السّرَوي[2]. وذكر محسن الأمين هذه الأسماء وزاد عليها صهيب بن أبي صهباء الشاعر[3] . قد يكون هؤلاء شيوخاً لأبي تمام تلقّى العلم والأدب عليهم وتخرّج على أيديهم ، وقد يكونون شيوخاً اتفق أن سمع أبو تمام منهم حديثاً بعد حديث وكتب عنهم إملاء بعد إملاء .

كان أبو تمام حافظاً للقرآن ، عارفاً بالحديث وبعلوم العربية ؛ كثير الاطلاع على التاريخ : ما عمّ منه وما خصّ ، حسن المشاركة في علم الكلام وفنون الفلسفة . أما في الأدب والنقد وفروع البلاغة فكان — مما يبدو لنا في ديوانه — إماماً كبيراً .

أثر مذهبه فيه

وكان مما اكتسبه أبو تمام في حمص مذهبه العلوي . ونحن نعلم أن أتباع

---

(١) أخبار أبي تمام ٢٤٩ — ٢٥٨ .

(٢) أعيان الشيعة ١٩ : ٤٨٥ . في أبي تمام الطائي (ص ٧٣) : صهيب بن أبي الصهبان (أو الصهباء) الشاعر (أيضاً).

المذهب العلوي أشد الناس محافظة على الفرائض والنوافل وأبعدهم في الحماسة الدينية حتى ليكونون أحياناً مفرطين فيما يظنونه التقوى . فهذا ، إذن ، عامل آخر يحجز أبا تمام عن ارتياد اللهو علناً ؛ وهذا شيء نعرفه من حياته .

وأبو تمام لم يكن متشيعاً[1] يُعجَب بآل البيت ويأسى لما نزل بهم من المصائب فقط ، بل كان شيعياً يعتقد إمامتهم ويذهب في إثبات الإمامة لعلي مذهبَهم . وشعره في ذلك كله ظاهر الدلالة . ولقد جمع محسن الأمين[2] طرفاً صالحاً من شعر أبي تمام الدّال على شيعيّته . أما أبرز قصائده في هذا الباب فهي[3] :

أظبيةُ ، حيث استَنّتِ الكُثُبُ العُفْرُ* ،
رُوَيْدَكِ لا يغتالُكِ اللومُ والزجرُ !

التي قالها في مطلع حياته قبل أن تقبل عليه الدنيا ، وحينما كان في مصر في الأغلب . وقد جاء في هذه القصيدة :

فعلتم بأبنـاء النبيّ ورَهطِـه ... أفاعيلَ أدناها الخيانةُ والغدرُ[4] .
ـ ومن قبلِه أخلفتُمُ لوصيّـه ... بداهيةٍ دَهياءَ ليس لها قَدْرُ[5] .
أخوه ـ إذا عُدّ الفَخارُ ـ وصِهرُه ؛ ... فلا مِثلُه أخٌ ولا مثلُه صِهرُ[6] .
وشُدّ به أزرُ النبيّ محمّـدٍ ... كما شُدّ من موسى بهارونِه الأزرُ[7] .

---

(١) راجع الفرق بين « متشيع » و « شيعي » ، ابن الرومي للمؤلف (الطبعة الثانية) ص ٩–١٠
(٢) أعيان الشيعة ١٩ : ٥٣٠–٥٤٣ .
(٣) ديوان خ ١٦١–١٦٦ .
(*) حيث تتالت (تتابعت) التلال السمراء اللون .
(٤) رهط الرجل : جماعته . أفاعيل جمع أفعولة : عمل الشر والخداع .
(٥) وصيه ، يقصد أبو تمام علي بن أبي طالب . يرى الشيعة أن الرسول كان قد أوصى لعلي بالخلافة بعده . الداهية الدهياء : المصيبة العظيمة . ليس لها قدر : ليس لها (لعظمها) مقياس تقاس به .
(٦) أخوه (لما آخى الرسول بين المهاجرين والانصار آخى بينه وبين علي) . صهره : زوج ابنته (فاطمة) .
(٧) الازر (في الاصل) : الظهر . شد به أزر النبي : جعل له سنداً ومعيناً . كما شد من موسى=

ويومَ الغَديرِ استوضح الحقَّ أهلُه ... بفيحاءَ لا فيها حِجاب ولا سِتر[1].
أقام رسول الله يدعوهمُ بها ... ليَقْرَبَهم عُرْف ويَنآهمُ نُكْر[2].
يمدّ بضِبْعَيْه ويعلم أنه ... وليّ ومولاكُمْ؛ فهل لكُمُ خُبْر؟[3]
أحُجّةَ ربّ العالمين ووارثَ ال ... نبيّ ، ألا عهدٌ وَفِيٌّ ولا إصْر![4]
ولو لم يخلّفْ وارثاً لعَرَتْكُمُ ... أمورٌ تَبِينُ الشكّ ساحةَ من تعْرو[5].

= بهارونه الازر : كما جعل هرون معيناً لموسى (راجع القرآن الكريم سورة طه ، ٢٠ : ٣١ : « هرون أخي، اشدد به أزري وأشركه في أمري ») .
وفي غزوة تبوك (٩هـ) اصطحب الرسول كبار الصحابة وخلف علياً مكانه على المدينة . وظن علي أن فعل الرسول كان تفضيلا للصحابة عليه، فقال له الرسول : ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هرون من موسى؟ (تخلفني في الناس كما خلف هرون موسى في بني اسرائيل لما صعد موسى لميقات ربه) .

(١) يوم غدير خم (بضم الخاء). خم غيضة فيها غدير على يسار الطريق من المدينة الى مكة. في الثامن عشر من شهر ذى الحجة من سنة ١١ خطب الرسول بعد حجة الوداع في من كان معه من الحجاج قبل أن يتفرقوا ، ثم أخذ بيد علي ورفعها .. وقال : « فمن كنت مولاه فهذا علي مولاه . أللهم وال من والاه وعاد من عاداه » الخ . كما يروى الشيعة . وهم يرون أن هذه الولاية تقوم مقام الوصية لعلي بالخلافة (راجع منتخبات اسماعيلية، دمشق ١٣٧٨هـ-١٩٥٨م، ص ٢١٦ - ٢١٧ ، ٢٢٠ ، ٢٣٠ ؛ وذخائر العقبى من مناقب ذوي القربى تأليف الحافظ محب الدين أحمد بن عبدالله الطبري) القاهرة ١٣٥٦ هـ (ص ٦٧) . استوضح الحق أهله : بان الحق للذين يحبون الحق . بفيحاء: في أرض منبسطة مكشوفة (علناً)

(٢) ليقربهم عرف : ليتاح لهم أن يعرفوا . وينآهم نكر : ليبتعد عنهم الجهل .

(٣) يمد بضبعيه : يرفع (الرسول صلى الله عليه وسلم)عضد (يد) علي بن أبي طالب ليشهد الناس على أنه مولى المسلمين . خبر : علم (راجع مقدمة ابن خلدون ، بيروت١٩٥٦ ص ٣٤٢ وما بعد) .

(٤) إصر : قرابة . - يا حجة الله على عباده ووارث نبيه (يقصد علي بن أبي طالب) ، ألا يقر (هؤلاء الذين فعلوا بأبناء علي ما فعلوا من الامور المذكورة في أبيات تسبق هذا البيت) بعهد أخذ عليهم أو بقرابة يعرفونها لعلي بالرسول) .

(٥) لو لم يكن للرسول وارث لنالتكم أمور معيبة تلحق من تصيبه (لو ترك الرسول المسلمين بلا وصية لكان ذلك عاراً عليهم) .

جعلتُ هوايَ الفاطميّين زُلْفَـــةً إلى خالقي ما دُمْت أو دام لي عُمْرُ[1].
وكَوّفني ديني ، على أن مَنْصِبي شآمٌ ونَجْري أيّةً ذُكِرَ النجر[2].

مقامه عند الممدوحين

رجع أبو تمام من مصر فأقام عند ممدوحين — في الشام وبغداد وخراسان — وكلهم من الخلفاء والأمراء ورجال الدولة الذين قاموا على أنقاض حاشية الأمين الفاسقة في زعمهم . أفتظن أن الذين ينقمون من الأمين أنه اتخذ شاعراً فاسقاً كأبي نواس — وهم إنما أثاروا عليه هذه التهمة حتى خلعوه وحاربوه ثم قتلوه ليشيّدوا دولتهم — يتساهلون في أمر دينهم وسلوكهم ليُرَموا بما رُمي به الذين جاءوا قبلهم ؟ كان هذا أيضاً يصد الشاعر عند عَبْثه إذا اشتهاه .

حياته الخاصة

ولكنّ هذا كله لم يكن ليمنعَ الشاعرَ من إطلاق عواطفه فيما حوله في شيء من الحذر والتستر . فلقد أحب بعض الجواري ، وكثيراً من الغلمان ؛ ويظهر أن عواطفه أحياناً كانت تتغلب على مبادئه فيسرف في شرب الخمر وإنفاق المال ، وفي اتباع أهواء النفس حتى يُسفّ إلى ما انحطّ إليه أبو نواس ؛ لولا انه متكتم قليلاً ، وان أبا نواس متهتك مستهتر[3] .

العنصر الشخصي

كان أبو تمام من الشعراء الذين شعروا بقيمتهم الذاتية شعوراً حقيقياً . لقد رُوي عن جميع الشعراء أنهم فاخروا أقرانهم ، وأشاروا إلى مقدرتهم في أثناء مناقضات متباينة المرامي ؛ ولكن أبا تمام كان أول من أخذ بالنظر إلى نفسه ثم إلى

---

(١) زلفة: تقرباً الى الله .
(٢) وكوفني ديني : اتخذت دين أهل الكوفة (التشيع لعلي وآله)، مع أن منصبي (مكاني ، سكني) ونجرى (أصلي ، نسبي) شآم (من أهل الشام ، أموي) أية ذكر النجر : مهما كان أصلي ، عربي أو رومي (؟).
(٣) راجع الاغاني ٢١ : ٣٤ .

شعره مؤكداً صفاتهما العالية. انه لا يكتفي أن ينشرهما، بل يتخذ منهما موضوعاً يتابعه في أماكن كثيرة من قصائده. تراه يقول من مِدحة في عياش ابن لَهيعة:

شَجيٌّ في حُلوق الحادثات مُشَرِّقٍ » به عزُمه، في التّرهات، مُغَرِّبِ[2]
كأن له دَيناً على كل مشْرقٍ من الأرض، أو ثأراً لدى كل مَغرب
ـ وان نُكبتُ بجِدّ في حُزونته سهّلتُه، فكأني منه في لَعِب،
مُقصّراً خطَراتِ الهمّ في بدني عِلماً بأنّيَ ما قصّرت في الطلب[3].

وغيرها مما تجده أيضاً في قصيدته: أهن عوادي يوسف وصواحبه[4].

وقد أجمل الأستاذ المقدسي[5] ذلك فأشار إلى «صبره على المشاق لبلوغ المنى، وشدة إعجابه بنفسه... فاذا قرأت ديوانه رأيته مفعماً بما يدل على أنه نشأ مغامراً في سبيل المال والجاه. وقد زادته كثرة أسفاره عزماً ومضاء...»

فلا عجب إن كان أبو تمام، إذن، واثقاً بنفسه إلى حد الغرور أحياناً؛ يفرض ما يقوله على الناس فرضاً، ويعتقد آماله قبل أن تقع. ولا تحملنّ ذلك منه على العفو أو العَبْث فقد جاء به في أعظم مواقفه جِداً؛ لنُصغ الى أبي تمام يقول (ديوان خ٧):

ولقد رجوتُ، فهل لديك بحاجة، وعلمت أنك لا تُخيب رجائي؛
إني امتدحتك لا لفائدة، ولا هَمّي جزاءُ مدائحي بجزاء
لكنْ أروم به احتياطَكَ؛ إنه فيما لديك لبُغيتي وغِنائي.

فهو يقول: أنا لا أمدحك طمعاً بالجائزة، ولا «تملقاً» كما يفعل الشعراء: ولكن لأريك عظمة شعري[6]... ثم انظر قوله «أنا (من) عرفت»، أوقوله

---

(١) راجع ايضاً الاغاني ٢١: ٣٤.
(٢) الترهات: القفار. ديوان خ ٢٥.
(٣) خ ٤٧١.
(٤) ديوان خ ٤٣، راجعها في «المختارات».
(٥) امراء الشعر ١٧٧ – ١٧٨.
(٦) ديوان س، ص ٥٤ وحاشية ٧؛ خ، ص ٧.

وإنّي لأرجو عاجلاً أن تردّني مواهبُه بحراً تُرَجّى مواهبي .

وسنرى في مكان آخر أن « آراءه لم تشتبه » ، وانه « فاق فطنة الفيلسوف »[1]

وقد انتقل هذا الروح إلى شعره أيضاً ففَخَر به وفضّله ، وقارنه بصلة الممدوح ، ثم قرن نفسه بالممدوح :

سأجهَد حتى أُبلغَ الشعرَ شأوَه ، وان كان لي طوعاً وليس بجاهد[2] .

فان أنا لم يَحْمَدْكَ عنّيَ صاغراً عدوّك ، فاعلم أنني غير حامد .

— فالبسني من أُمّهات تِلادِه ، وألبسته من أمهات قلائدي[3] .

— ما خالد لي دون أيوبٍ ، ولا عبدالعزيز ؛ ولستَ دون وليد[4] .

خذْها مثقفةَ القوافي ، ربّها لسوابغ النّعماء غيرُ كَنود ،

حَذّاء تملأ كل أذنٍ حِكمةً وبلاغة ، وتُدِرّ كل وَريد[5] .

كالطعنة النّجلاء من يـــد ثائر بأخيه ، أو كالضربة الأُخْدود[6] ؛

كالدر والمرجان أُلّف نظمُه بالشّذْر في عنق الكَعاب الرود[7] .

ويندر أن ترى له مدحة لم يفتخر فيها بنفسه وشعره[8] :

---

(١) ديوان خ ٤٣ ، ٨٤ ، ٤٠٤ .

(٢) خ ١١٩ .

(٣) خ ٩٥ .

(٤) خ ٨٤ = هذا بيت من قصيدة يعتذر ابو تمام بها الى قاضي الدولة احمد بن ابي دواد ، ويستشفع بخالد بن يزيد الشيباني فيقول : مثلي في الاعتذار اليك مثل يزيد بن المهلب لما استجار من الوليد بايوب بن سليمان بن عبد الملك ، و بعبد العزيز بن الوليد فشفعا له . وما خالد الذي يشفع لي باقل منها ، وما أنت باقل من الوليد بن عبد الملك — راجع امراء الشعر ص١٧٩ (راجع ديوان شرح التبريزي ١ : ٤٠٠ .

(٥) حذاء : قارصة .

(٦) الاخدود : الشق في الارض . الضربة الاخدود : الضربة بالسيف تحدث جرحاً واسعاً .

(٧) الشذر : قطع من الذهب او الفضة توضع بين اللؤلؤة واللؤلؤة في العقد .
الكعاب : الفتاة اذا برز نهداها . الرود : اللينة ، الناعمة .

(٨) ص ١٧٩ — ١٨٠ .

وما كنت ذا فقر إلى صُلب مـــاله ، وما كان حفصٌ بالفقير إلى حمدي .
ولكن رأى شكري قِلادةَ سُؤدُدٍ فصاغ لها سِلكاً بهياً من الرِّفد ؛
فما فاتني ما عنده من حِبائه ، ولا فاته من فاخر الشعر ما عندي[1] .
– بقوافٍ هن البواقي على الدهـ ـر ، ولكنّ أثمانهن مَواض[2] .

ثم لا يذهبن بك الظن إلى أنه يدعي ذلك ويتظاهر به ، فقد رُكّب ذلك في نفسه ؛ روى الأصفهاني[3] أن أبا تمام أنشد عبدالله بن طاهر قصيدته « أهن عوادي يوسف وصواحبه ؟ » فنثر عليه ألف دينار ، فلم يَمَسّ منها شيئاً بل تركها للغلمان يلتقطونها حتى وجد عليه ابن طاهر ، وقطعه زماناً . ثم قلّب ديوانه حتى تصل إلى هذه الأبيات فتحسب أبا تمام إنما يتكلم عن نفسه لا عن الممدوح :

مـــاذا ترى فيمن رآك لمدحـــهِ أهلاً ، وصارت في يديك مَصائرُه ؟
قـــد كابرَ الأيام حتى كَذّبت عنه[4] ، ولكنّ القضاءُ يكابره .
لا تنسَ من لم ينسَ مدحك ، والمنى تحت الدجى يزعُمنَ أنك ذاكره .
بكّرْ ، فقد بكَرتْ إليك بمِدْحة غُررُ القصائد ؛ خيرُ أمر باكره .
لا شيءَ أحسنُ من ثنائي سائراً ، ونَداك في أُفق البلاد يسايره[5] !

٢ – العناصر المساعدة

دخل أبو تمام بغداد بعد وفاة المأمون ، وقد لبست من الثقافة الأجنبية ثوباً

---

(١) ديوان خ ١٣٢ – ١٣٣ .
(٢) ديوان خ ١٨٨ .
(٣) الاغاني ١٥ : ٩٩ (بولاق) .
(٤) كذبت عنه : انثنت عنه وجبنت ، و معنى البيت ان الشاعر غالب الأيام فقهرها ؛ ولكن قضاء الله هو الذي يغالبه الآن .
(٥) ديوان خ ١٥٦ .

قشيباً بفضل سعيه لنقـــل كتب الإغريق خاصة . ويحسن هنا أن نقول : إن أبا تمام جاء بعد ردح من الزمن فرأى الكتب منتشرة ، والثقافة شائعة في الناس . بدأ الخلفاء بالنقـــل منذ أيام المنصور (١٣٦ — ١٥٨ هـ) ، ولكن الثقافات المتضمنة في الكتب المنقولة اقتضت وقتاً حتى انتشرت بين الناس .

أما الجوالي اليونانية والفارسية والهندية ، سواء منها التي اعتنقت الإسلام — قديماً أو حديثاً — أو التي بقيت على أديان آبائها ، فانها كانت كتباً حية في المجتمعات وحلقات الأدب والعلم والجدل . وإذا كان بشار بن بُرد وأبو نواس وأبو العتاهية ومعاصروهم قد رأوا هذه الحركة في أولها ، وتعرّفوا إليها في طفولتها فان أبا تمام قد شهد عنفوانها وعاش في إبّانها .

الثقافة اليونانية

هُزم النفوذ الفارسي في معركتين : الأولى يوم فتك الرشيد بالبرامكة وأتباعهم ومواليهم وصنائعهم ، فقضى على نفوذ الفرس في الحكم ، وقلّص ظلهم الوارف عن قصر الخلد ؛ والثانية يوم ترك المأمون مرو وأتى إلى مدينة السلام ، ثم ما عتّم فيها أن أعلن ترك الخضرة والرجوع إلى السواد : شعار بني العباس ؛ فقضى على أمل الفرس المستتر وراء النظرية العلَوية في الخلافة ؛ غير أن ذلك لم يتعرض للثقافة الأدبية بشيء .

إلى جانب هذه الثقافة الأدبية الفارسية ازدهرت ثقافة علمية إغريقية . فبينما كنت ترى الناس يستمعون إلى الغناء الفارسي أو المنقول عن الفارسية ؛ أو تراهم يصغون إلى قُصّاص الخرافات الفارسية أو يتفقهون بالأدب الفارسي والكياسة الفارسية ، اللذين استخرجهما ابن المقفع وأمثاله ، كنت تراهم يتجادلون في الفلسفة اليونانية ويتناقشون في كتب الإغريق العلمية . وكان للهند أيضاً ثقافة رياضية في بلاد الإسلام كلها . غير أن العرب لم يستفيدوا من أدب اليونان الفني .

وكان أظهرَ هذه الثقافات في شعر أبي تمام الثقافةُ اليونانية ، ولا عجب فقد

كانت الزي الشائع بعد المأمون كما أن الثقافة الفارسية كانت الزي في عصر هرون الرشيد . ولعل هذه الثقافة كانت أقرب إلى عقلية أبي تمام ، ربما لصلة نسبه بالروم ، وهو لم يتحرر من بيئته اليونانية إلا يوم أسلم دون أفراد أسرة على ما رأينا .

ثم توفي المأمون وترك وراءه نزعة من الحرية العقلية لم يعرفها الإسلام من قبل ولا عرفها من بعدُ : لقد تناولت هذه النزعة الدين بأوسع مظاهرها وفي أقدس مظاهره كالقول بخلق القرآن، وجدال أهل الكتاب بلا قيد ولا رقيب ، ثم التفكير في ما حفظه الدين من الروايات . وحسبك في هذا المقام أن تعرف أن هذه كانت من قبله كفراً أو أقرب شيء إلى الكفر . ولا ريب في أن أبا تمام احتك بهذه أيضاً – وهو الشاعر العالم – واستفاد منها حتى ظهر بعض أثرها في حياته وشعره .

الزندقة والشعوبية

اتّهم حبيب بن أوس بالزندقة ككثيرين غيره ؛ والزندقة يومذاك تهمة سياسية أو دعوى على رجل اتهم بما لا يمسّ الدين في أساسه . فيكفي أن يكون الإنسان متهتكاً في قوله دون عمله حتى يرمي بالزندقة . وقد يكون ملحداً كافراً فلا يسمونه إلا زنديقاً . من أجل ذلك ترى أن هذه الكلمة مطاطة باستطاعتك أن تجمع فيها الأضداد والقُرَناء . وقدا تُهِمَ أبو تمام بها، قيل لأنه لم يصلّ الظهر في يوم بارد .

أما الشعوبية فلم تظهر في شعر صاحبنا ولا في حياته ؛ ليس ذلك فقط بل انه هجا من اتهموا بها وبالزندقة هجاء مراً . فلا عجب إذا بحثنا فيها عند الكلام على هؤلاء .

الاحداث والفتوح

لم يمثل الناحيةَ القوميةَ الدينية بمعناها الواسع حتى ذلك الوقت شاعر كما

مثّلها أبو تمام . ثم جرى كثيرون على أثره وحاولوا أن يلحقوا به ، ولم يبلغه ويتقدمه عليه غير شوقي .

كان فخر الجاهلي بقبيلته فحسب لا يعدو بضعة آباء خوفاً من أن يلتقي بجد قبيلة الشاعر الذي يفاخره ؛ وجاء العصر الأموي فكانت النقائض التي نسمّيها نحن هجاء سياسياً ، فخراً محدوداً وشتائم كثيرة لا تعدو أيضاً قبيلة واحدة ، أو أسرة واحدة . أما أبو تمام فقد مدح الخليفة ، وهو رأس الامبراطورية العربية الإسلامية ؛ ومدح رجال الخليفة — وأكثرهم عرب — إذا كانت سيرتهم وأعمالهم في رضى الخليفة ، كما سنرى عند الكلام على فنون أبي تمام . ولقد أجاد الشاعر في جميع هذه القصائد إجادة عظيمة ، وخلق منها في ديوانه ناحية بارزة تنجلي فيها نفسه الكبيرة سيفاً مسلولاً على أعداء الخليفة الداخليين والخارجيين ، ومنطقاً فصيحاً ، وشعراً فخماً . ولنوجز الآن الكلام على خمسة من هذه الأحداث .

أ — العلويون

يظهر عطف أبي تمام على العلويين جلياً في عدد من قصائده لميله اليهم : كان يعتقد بحقهم في الخلافة ويأسى لما أصاب رجالهم على يد العباسيين . وكان المأمون قد مال إلى العلويين ثم انقلب عليهم[1] .

خرج محمد بن القاسم بن عمر بن علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب بالطالقان من خراسان . وبعد معارك متعددة انهزم فنجا إلى نسا ، فأخذه عامل نسا وأرسله إلى عبدالله بن طاهر أمير خراسان . وأرسله عبدالله بن طاهر إلى المعتصم فوافق وصوله إلى سامرا في ربيع الأول من سنة ٢١٩هـ (آذار ٨٣٤ م) فحبسه المعتصم ، ولكن محمداً احتال في ليلة الفطر (آخر رمضان ٢١٩ = ٥ تشرين الأول ٨٣٤) ، وقد اشتغل الناس بأمر العيد ، للهرب . ولم يعرف أحد مكانه بعد ذلك .

---

(١) راجع قصيدته : أظبية حيث استنت الكثب خ ١٦١ – ١٦٦ ، (وفوق ، ص ٤١–٤٣).
(٢) تاريخ الكامل ٦ : ٣١٢ .

ب – بابَك الخرمي

الخرمية « دين الفرح » ، ويعمل أتباعها على الأخذ بالملذات وعلى « الاباحية » فيتزوج الرجل أمه أو أخته أو ابنته ؛ ويؤمنون بتناسخ الأرواح . ولهم ناحية ثانية في مذهبهم هي كره العرب وكره دينهم ، والعمل على ردّ المزدكية – دين الفرس الشعبي – ؛ على أن هذه الحركة لم تقوَ إلا بعد اتصالها ببابك[1] في حديث يطول . فلما قويت قام بابك يحارب المسلمين معتصماً بجبال البَذّ منذ أيام المأمون . وقبل أن يتوفى المأمون أخذ في وصيته على أخيه المعتصم عهداً لزاماً بأن يتغلب على بابك ولو أنفق كل ثمين . ولقد صدع المعتصم بذلك فلم يغزُ الروم ، ولم يوجّه جيشاً إلا إلى حرب بابك حتى انتصر عليه[2] .

أثارت هذه الحادثة حمية أبي تمام الدينية وخلدها في قصائد كثيرة من عيون قصائده في شعر يتدفق حماسة وبلاغة ، ثم قدم الأفشين ببابك الخُرّمي على سامرا سنة ٢٢٣ هـ فقُتل بابَك فيها وصلب .

ج – فتح عَمورِيَة

كان الروم قد انتهزوا فرصة اشتغال المسلمين بحروب بابك فجعلوا يغيرون على البلاد الاسلامية ؛ او يُؤوون اليهم بعض الثائرين على سلطة بغداد . وقبيل اسر بابك أغار ثيوفيلوس[3] ، ويسميه العرب : توفيل بن ميخائيل ، على

---

(١) بابك في الفارسية تصغير باب ؛ والباب بالفارسية : الاب، الجليل . وبابك تطلق على المرب، والمعلم. وهو أسم ملك أيضاً . (Steingass, Persian - English Dictionary, London, p. 135.

(٢) طالت حركة بابك عشرين سنة وروي انه قتل في اثنائها ٢٥٥,٥٠٠ انسان ثم تغلب الافشين على بابك واستخلص من في يديه من المسلمات واولادهن . وقد كافأ المعتصم الافشين بعشرين مليون درهماً (نحو نصف مليون ليرة ذهبية) .. وادخل عليه الشعراء يمدحونه وامر لهم بصلات ايضاً، وذلك في ١٥ ربيع الاول سنة ٢٢٣ فقال فيه ابو تمام قصيدته : « بذ الجلاد البذ فهو دفين » الطبري (مصر) ١٠ : ٢٣٣ ؛ خ ٣٢٦ – ٣٢٨ ؛ تاريخ الكامل ٦ : ١٣٥ ، ١٨٢ ، ١٨٩ – ١٩٣ . والفهرست ٤٨٠ – ٤٨٢ .

(٣) Cf. Finlay, Hist. of Byz. Emp. ch. III. Sect. ii

زِبَطرة[1] : مولدِ امّ المعتصم، وقيل بل مولد المعتصم؛ وخربها ثم أوقع بأهلها . في هذه الاثناء اتصل بالمعتصم ان امرأة هاشمية صرخت ، وقد هاجمها العلوج : « وآمعتصماه » . فصرخ وهو على سريره : « لبّيكِ » . ونهض من ساعته . واستعد اعظم استعداد (٢٢٣هـ) .

لقد خرب توفيل مدينة لها ذكرى في قلب المعتصم ، فاراد المعتصم ان يقابله بمثل عمله ؛ فسأل عن اعظم مدينة عند الروم ، فقيل هي عَمُورِيَةُ . ولعل لذلك سبباً آخر هو ان عمورية بلد الدولة الحاكمة ومولدها واليها تنسب . ففتح عمورية ، اذن ، كان مغامرة شعرية جميلة فوق ما انطوت عليه من الاهمية التاريخية التي حملت الروم ذُلاً تتلمسه في قصيدة فتح الفتوح[2] .

د — مازيار

كان مازيار هذا قد اظهر الخلاف على امير خراسان عبد الله بن طاهر ؛ وفي عام ٢٢٤ هـ خرج عليه بطرستان وامتنع عن ارسال الخراج . لكن عبدالله تمكّن بوساطة احد عماله من ان يقبض على مازيار ويرسله الى سامرا ، فيقتله المعتصم عام ٢٢٥ هـ .

هـ — حرق الأفشين

لما ظهرت حركة بابك أرسل الأفشين لقتاله ؛ ولكن الافشين جعل يطاول بابك ، فاثارت هذه المطاولة شكاً حوله ، وظنها الكثيرون محاباة للثائر وعطفاً عليه . ثم تتابعت سلسلة من الأدلة جعلت الافشين متهماً لدى الخليفة : منها ارساله الأموال الى اشروسنة (بين نهر سيحون وبلدة سمرقند) سراً ، قيل لتأييد الدعوة الى الدين المجوسي وردّه ؛ وقد ثبت ان أهالي أشروسنة كانوا يبدأون

---

(١) زبطرة Zapetra بلدة بين ملطية وسميساط والحدث، فتحها المعتصم سنة٢٢٣ هـ (ياقوت ٢ : ٩١٤) .

(٢) « السيف أصدق انباء من الكتب .. »

كتبهم الى الافشين بهذا العنوان : « الى اله الآلهة ... » ؛ وانه كان لدى الافشين كتاب في الديانة القديمة مُحَلّى بالذهب والجواهر ؛ وانه كان يكاتب اتباعه ويكاتبونه متربصين بالعرب الدوائر . وزاد في النقمة على الافشين سعيُه بعبد الله ابن طاهر وطمعه بإمارة خراسان مكانه .

كل هذه البينات تجمعت لتدين الافشين فلم يرَ المعتصم بداً من قتله ؛ ولكن السياسة اضطرته الى تجاهل امره حتى ينجليَ الموقف في خراسان ؛ فتركه اميراً عاماً للجند في المشرق ، ولكن جعل على بعض اقسام الجند قادة يطمئن الى ولائهم : منهم ابو سعيد محمد بن يوسف الثغري ، وابو دُلَف العِجلي ، يساعدهما عبد الله بن طاهر والي خراسان .

وتغلب المسلمون على بابك ولم يقتل المعتصمُ الافشينَ ، لحرصه على الاستفادة من مواهبه العسكرية في حرب الروم ايضاً بعد ان عزم على مهاجمة عمورية . فلما فُتحت عمورية وغُلبت الروم ؛ ولما خضَد الخليفة شوكة الثائرين في المشرق ومكّنه الله من اعناقهم ، لم يبق للمعتصم في الافشين مأرُبة فقتله وصلبه ، ثم احرقه . فأضاف ابو تمام الى قلائده الخالدة قِلادة جديدة ، وانشد المعتصم مِدحة جديدة يبدأها ببسط تهم الافشين ، وينهيها بطلبه الى الخليفة ان يعقد لابنه الواثق ولاية العهد ؛ وذلك عام ٢٢٥ هـ[1] :

الحقّ أبلجُ ، والسيوفُ عَوارِ[2] ؛ فحَذارِ من أسَدِ العرين حَذارِ !

---

(١) ابن الاثير ٦ : ٢١٠ ، خ ١٥١ – ١٥٥ .

(٢) ابلج : ظاهر ، واضح ؛ عوار (ج عارية) مجردة .